مؤلف ثائر وموسيقار نابغ

مكسيم جوركى
يهـدم الحكم القيصرى
مبلغ تأثير أديب شعبى فى حياة أمة

للأستاذ محمد لطفى جمعة

منـذ بضعة أشهر ، قضى فى الستين من عمره شالياپين Chaliapin الممثل الروسى الأشهر ، وكان أخلص أصدقاء جوركى ، وقسم حياته فى شبابه وكهولته ، ولجوركى فضل تحويله من نزعته الأرستقراطية إلى المذهب الاشتراكى . وخلف شالياپين فيما خلف ذكريات مخطوطة ورسائل منثورة تولى بعض أصـدقائه نشرها فى مجلة « العهد الجديد » . ويمكن لمن يطالع هـذه المذكرات والمقولات والقصاصات التى نشرت بعد طبها ، أن يجدَ فى أدب جوركى وفن شالياپين أدلة قوية على تأثير الأدب فى حياة الأمم ، وعلى تدخل الفنون والمواهب العقلية فى كل ثورة طارئة على المجتمع . وهذا يذكرنا بما كان لسقراط وأفلاطون وسوفوكليس وأوريپيديس فى اليونان، ولفيرجيل وإيكتيت وسنيكا فى الرومان، وفولتير وروسو فى فرنسا، وإديسون وديفو وهيوم وبوكل وبنتام وكارليل فى انجلترا، وتورجنيف وجوجول ودوستيوفسكى وتولستوى وجوركى فى روسيا

زعم بعض الدعاة أن جوركى نقم على صديقه القديم لينين[1] بعض طرائق تفكيره ووسائل حكمه ، وأنه غادر روسيا غاضباً ولم يعد إليها إلا بعد موت لينين ؛ ولـكن هـذا النبأ كاذب ، فإنهما عاشا وتعاشرا وافترقا على أصفى الود ؛ وإنمـا أراد لينين بسفر جوركى إلى الخارج أن يكون بمثابة السفير العقلى ليفيد الروس من مجده الثابت فى أذهان غرب أوربا ، بينما هو كاتب عالمى يقوى جانب لينين بانضمامه ويعتز به . وقد ثبت من الوثائق التى أظهرها شالياپين أن كتب جوركى كانت تطبع وتنشر بالملايين فى حقول روسيا وسهولها وبيوتها ومدارسها ومصانعها ومعاهدها أثناء غيبته فى أوربا الغربية ، تلك الغيبة التى عللوها بالجفوة بينه وبين لينين . ولو كان جوركى غاضباً أو مغضوباً عليه لم يكن ليستمتع بهـذه الشهرة النادرة فقد أخرجت مطابع لينينجراد وموسكو وساراتوف ونيجنى نوفجورود فى سنتى ١٩٢٤ و١٩٢٥ أكثر من أربعة ملايين نسخة من كتبه (المتشردون وكونولو وماريا المجدلية وتوماس جودوريف) . وقد حبب جوركى إلى قلوب قرائه استقلاله فى الأدب وغيرته على تكوينه الذاتى فقد أدب نفسه وربى عقله ولم يكن له أستاذ غير نفسه . لم يكن أناتول فرانس أول كاتب عظيم طلق اسمه ، وخلعه وقذف به وتبرأ منه لثقله وعدم انسجامه وهو « تيبو » اسم سيء الرنين فى الأذن الفرنسية المرهفة الحس ، وكذلك كان اسم جوركى مكسيموفتش بشكوف ، فاختصر الاسم ودفن اللقب وأحل محله جوركى ومعناه « ذو الغضاضة أو المرارة » وقد روى جوركى تاريخ أهله وترجمة حاله فى طفولته وشبابه فى رواية توماس جورديف . وإنه لشبيه بكل العظماء فى اليتم، فكان يتيماً لطيماً ، لفظه بيت الأسرة وتلقفته حوانيت الملحين ، وأركان الشوارع وسفائن اللاحة على نهر فولجا السحرى الذى كرر ذكره فى كتبه وخلّد صور الحياة على ضفافه فى قصصه الأولى ، ومعظم أشخاصها من المفاليك والصعاليك والمنبوذين والمحاويج الذين علقوا بالنهر من قريب أو من بعيد .

وتمتاز تلك القصص بالصدق لأنها مغمورة بالبؤس والضراء

رئيس وزارتها بإقناع فرنسا بضرورة التريث وبذل الجهود فى حل الخلاف الألمانى التشيكوسلوفاكى بالطرق السلمية . ولأجل ذلك قرر المستر تشمبرلين حين اشتداد الأزمة زيارة الهر هتلر طائراً وبذل الجهود التى عرضناها فى مقالات سابقة ، لإقناع زعيم ألمانيا بحل قضية السوديت سلمياً . وللوصول إلى هـذا الحل تساهل المستر تشمبرلين مع الهر هتلر إلى حد التسليم بكل ما طلب وفرض

وقد ظن المستر تشمبرلين أن إرضاء زعيم ألمانيا فى مونيخ يزيل أسباب الحرب ويوجد السلام المنشود ، وأنه باتباع سياسة « تهدئة الخواطر » يسود التفاهم وتعم الطمأنينة . فهل نجح المستر تشمبرلين فى سياسته أم أن هذه السياسة أكثرت المشاكل الأوربية وعقدتهـا وجعلت وقوع الحرب أمراً لا بد منه ؟ هذا ما سنبحثه فى مقال آخر

يوسف هيكل

(١) اسمه الحقيقى إيليا إيليا نوفتش

وخشونة الحياة وشظف العيش والإرغام على الصبر وتحمل المكاره التي حفت بها الدنيا . وتلقى التعليم الأول على يَد طاهٍ كان في بداية أمره من رجال الحرب ، ثم وقف أمام الكانون بعد الطعام . وطلب جوركي العلم في قازان والتمس العيش في مخبز وباع الفاكهة الفجة والناضجة في الأسواق . ويرجع إلى هذا العهد تلقين جوركي مبادئ الثورة الاجتماعية عن رجال ونساء كانوا يتخذون أزياء غير أزيائهم ويندسون في ثنايا المجتمع ليدعوا إلى الإصلاح . فيكون أحدهم أستاذاً في الجامعة أو طبيباً أو مهندساً ولا يأنف أن يستخفي في مباذل خباز أو عَجّان أو خزّاف . وقد عرض لجوركي أثناء تلك الفترة ألوان من المِحَن كاحتقار المثل العليا التي يخلقها الخيال — قصة « عشرون رجلاً وامرأة » — وسهولة الاتصال بالنساء واقتراف الجرائم في سبيل سد الرمق ومقاومة الجوع ولو بالقوت الضروري ، وامتزاج الميول الجنسية بالحاجة المادية ، وعجز الفاقة والشهوة عن خنق المواهب الكامنة في نفوس النوابغ والتي تظهر لأسباب طارئة تفهة . فإن جوركي وهو في أشد حالات الضنك وأحط درك الاجتماع ، كان مشتغلاً بحاضر العالم ومستقبله ومنابع الخير والشر في المجتمع ووجوب خدمة الإنسانية بأسرع ما يستطيع وبكل ما يملك من عقل وخلق وإرادة . كان جائعاً طريداً معدماً مدقعاً ، ولكنه كان مفكراً وثائراً وحائراً ، فلم يقف جوعه في طريق عقله ، لأنه كان يشعر بامتلائه بما قرأ وما رأى وما سمع ، وكان يبغض من أعماق قلبه منظر الآلام وأخبار الشقاء وترديد أنّات التوجع ، لأن حسه المرهف لم يطق تحملها ، فما باله بالسخرية تصدر عن القوي من الضعيف والحاكم من المحكوم ، والغني من الفقير ، وبالاعتداء والتعذيب وإهراق الدماء . كان إذا قضت عليه الأحوال برؤية لون من ألوان الأسى يحزن ثم يغضب ثم يثور ، فإذا لم يجد من يشفي غليله انهال على نفسه ضرباً كما يضرب الفلاح حماره . وقد أضرت به الفاقة فتعلق بأهداب الموت ، ولكنه اتصل بتولستوي عن طريق كتبه وتلاميذه . وأخذ يكتب في نصف العقد الثالث حوالي سنة ١٨٩٣ فاكتشفه كورلنكو فتبناه وأعانه . وكورلنكو من أكبر كتاب روسيا ، غير أنه راح فريسة قسيس روسي خبيث حبب إليه الآخرة وقبح له الأدب والفن فأحرق مخطوطاته في باريس إرضاء لرجل الدين الذي تكشف عن جاسوس قيصري دسته عليه الحكومة لتسلب شعوره وتتركه لعبة في أيدي رجال الخفية . بيد أن جوركي أدرك كورلنكو قبل أن يصيبه الخبال فجنى من ثمار نبوغه وترسم خطاه في التحرر من قيود البيان وتبع المدرسة الجديدة التي تجعل للمعاني المكان الأول من ذهن الكاتب . وفتح له كورلنكو مغاليق الصحافة الأدبية . فأشهر كتابه الأول في ختام الثلاثين من عمره ولم يكف عن التأليف والنشر بعد ذلك ثلاثين عاماً . ولم يخلع مكسيم جوركي ثياب الفلاحين ولم يبدل من طريقة عيشهم . وكان وجهه بتقاطيعه وتقاسيمه الموجيكية يسحبه إلى الفطرة الروسية سحباً . ولا عجب ولا غرابة فقد كان جزءاً من تلك الخليقة الموسكوفية والسليقة السلافية أشبه الرجال بليو تولستوي . يقول شاليابين : « إلى تلك الفترة ترجع تلك اللوحة الزيتية العجيبة التي أنتجتها مواهب صديقه ريبين ، فقد صور جوركي في بذلة فلاح مديد القامة بارز الوجنتين صغير الذقن قصير الأنف غزير الشعر أشعث المظهر . . . تمثالاً حياً وصورة ناطقة لفتى الريف الروسي في أذكى هيآته وأنبلها . فلله در ريبين الذي خلد ببراعته صورة صاحبه . وكان تسلق جوركي سلم الصيت سريعاً . وقد بَذّ في صعوده الأمجاد من أمثال تولستوي وجوجول وتورغنيف . وتعليل ذلك أنه نال من نفوس الشعب ، فأحبه وعطف عليه ، ووثق من مقاصده ، وكأنه رآه يخلق ويصنع على عين أمته فلم يكن شيء من حياته خافياً . وكانت الأفئدة مستعدة لتسلم هذا الأثر ، ولا سيما أفئدة العمال والصناع الذين ما زجهم جوركي وخالطهم واتصل بهم وعمل على تحريرهم من قيود الفقر والظلم القيصري ، ولم يخجل من ذكر حوادث ماضيه واختلاطه أحياناً بالنساء البائسات في حوانيت أو مخازن أو خرائب مهجورة أو على شواطئ البحر وضفاف الأنهار . لأن هذا الذي سمّاه « الفريسيون » وصغار البورجوازيين سقوطا ، لم يكن إلا تسامياً عن طريق الألم [1] فكان أحياناً يفكر في حظ الإنسان ومستقبل الحضارة ويحدث نفسه بإحداث أعظم أثر في المجتمع ، وهو لاصق إلى فتاة مسكينة تُعد منبوذة في حكم النظام الاجتماعي . وكان شاليابين وليتين من الأصدقاء الذين

(١) idealisation par la souffrance

اتصلوا به فى أوربا الغربية حين نزح إليها منذ ثلاثين عاماً . وعند ما حكمت محكمة بطرسبرج على جوركى بالسجن لاشتراكه فى مظاهرة البوب جابون[1] احتج تولستوى بخطاب مفتوح إلى القيصر وانضم إليه مفكرون فرنسيون وانجليز . ونشر فى ضحى هذا القرن ذكريات طفولته تقليداً لتولستوى الذى فعل ذلك . وكان كلاهما مخلصاً فى وصف هذه الفترة من حياته . وكان صدر جوركى منيعاً فألزمه الأطباء جزيرة كابرى فقصد إليها ولم يكن له زوج وأولاد يرعونه ، فإن حياته الأولى فى ظلال الشقوة والقلق والفلاكة عدلت به عن اتباع طريق العادة . ولعل تعففه عن النساء فى أواسط عمره مكّن له من مقاومة داء الصدر الوبيل الذى أصيب به فى أوائل شبابه ، فنفض عن كاهليه غبار المرض فى جو تلك الجزيرة الصاحية الضاحكة ذات الألوان البهيجة والظلال الوارفة والأشجار الملتفة والأشعة البنفسجية . وفى كابرى زاره الأدباء والعلماء والزعماء ولا سيما لينين الذى كان يهرع إلى تلك الجزيرة ليتخذ منها مغنى وملهى وموضعاً للتفكير والتدبير . ولم يكن جوركى خصم الشيوعية من اللحظة الأولى ، ولكنه لم يكن لها باختياره ، لأن الشعب تعلق بكتبه ، وأعجب بأدبه ، فطلب إليه لينين أن يرأس تحرير جريدته فأجاب سؤله . ففاز به لينين ولشد ما كان إعجابه بهذا الفوز ، لأن جوركى كان الكاتب الكبير المخضرم ، وهو الوحيد بين من عطفوا على الثورة . وكانت تعوقه عن التمادى فى نصرتها عقبة عقلية ونفسانية ، وهى أنه بنشأته وغريزته يعين الفرد ، ويعززه ويعمل على تنميته وتعظيمه والإعجاب به ، والثورة الشيوعية تود لو تمحو شخصية الفرد ليندمج فى المجموع ويسخر له . وفى هذا المذهب ابتلاع لمبادئ الفلسفة الاجتماعية التى سرت إلى سريرة جوركى وسرائر أساتذته وأصدقائه . ولكن الشيوعيين اعتقدوا أنهم فى حاجة إلى كاتب فحل واسم ضخم وأثر عنيف ، يقف كالطود وينصب كالعلم ليلتف حوله أولاده وتلاميذه ، فلم يبخل جوركى على وطنه بهذه النعمة ، وقد روى لى (شليابين هو المتكلم) : أن ستالين قال له يوماً فى موسكو :

— ما عليك يا ابن مكسيموفتش العزيز !

أليس هذا النظام الذى يحارب الفقر والجهل والمرض وينتزع الشعب المقهور من براثن الفاقة ، ويعد مستقبلاً سعيداً للاليين المساكين الذين طال تعذيبهم ، وكتبك كلها ناطقة بالحنان عليهم أتراانا نبالغ أحياناً ونطلب المزيد ؟ فأعرض عنا قليلاً قليلاً ، ولكن لا تتخل عنا . نحن أقرب الناس إليك فى سوق هذه الحياة الدنيا (كذا) ، ولا أهل لك غيرنا لو تأملت . أما أنا فستجدنى أطوع لك من لينين ، أى من بنانك . فأنا أعلم أنه كان يحبك حباً جماً ، ولا يخيب لك رجاء ، وحسنا فعل ...

فقلت له : ولكننى فى حاجة إلى الراحة . فقد بقيت أكتب وأكتب منذ ثلاثين عاماً وأكثر . أما آن لى أن أستريح ؟

قال لى : لكن قلمك اخترق قلوب الشعب ، فلا يحلو لهم غير الذى تصوغ من درر الفن الرفيع . إن تعلق الشعب بك بعد أن مات تولستوى وتشيكوف ، وبعد أن فرأندرييف أشد من تعلقك بشليابين لحبك موسيقاه وتفانيك فى أنغامه

وسألت جوركى فى هذا فقال لى : أنا أحبك لذاتك . أنت شيطان الموسيقى الأكبر ، ولكن الموسيقى التى تجذبنى هى التى سمعتها على ضفاف نهر الفولجا أو فى سفائن تمخر أمواهه

محمد لطفى جمعة

مولد الليـــل

(بقية المنشور على صفحة ١٥٦)

هَذِهِ الشَّمْسُ إذا ما غَرُبَتْ فورَاءَ اللَّيْلِ إصْبَاحٌ يَرُوقْ
وإذا شَمْسُ حَيَاتِى ذهبتْ وَدَجَا (اللَّيْلُ) فلا نجم ولا
مَوْضِعٌ فيه لِفَجْرٍ أو شُرُوقْ

ظُلْمَةُ اللَّيْلِ بهذا العَالَمِ تَسْبَحُ الأحْلَامُ فِيهَا وَتُطِيفْ
أتُرَى لِى مِثْلُ حُلْمِ النائِمِ إن دَجَا فَوْقَ لَيْلِ الرَّدَى،
أمْ تُرَى لَيْسَ سِوَى الصَّمْتِ المَخِيفْ ؟

إيهِ يا لَيْلُ تَجَمَّعْ وَانْزِلِ فِيكَ لِلْيَائِسِ أحْلَامٌ تُنَاحْ
إيه ياليل ، بقلبى الذَّابِلِ سَكَرَاتٌ من مُنًى حائِرَةٍ
تَتَلاشَى عِنْدَ إقْبَالِ الصَّبَاحْ

الضعيف

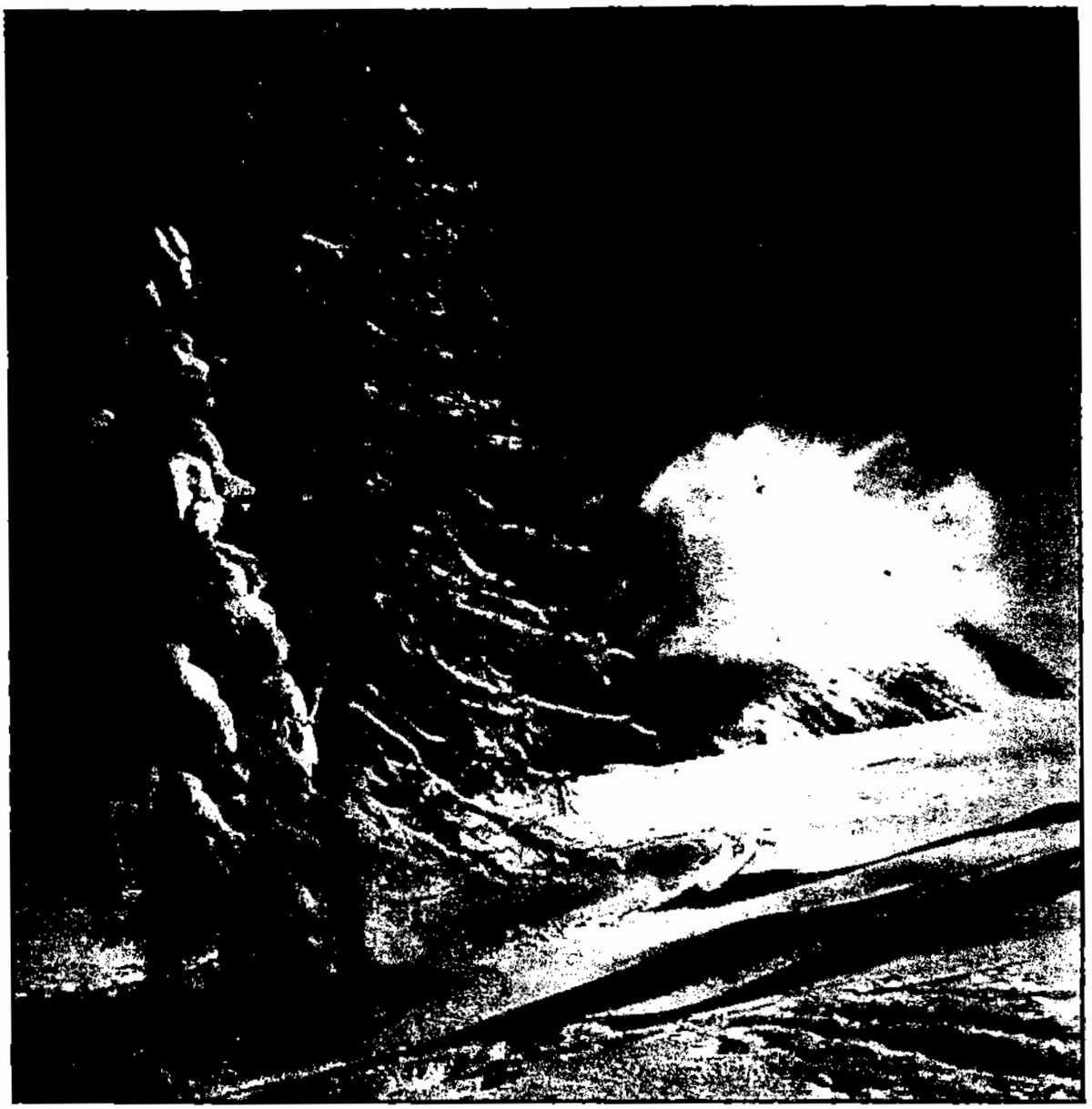

الشتاء ! الشتاء ! وماذا تفهم من الشتاء يا ابن مصر الضاحية الضحوك ؟ هل تفهم منه إلا أنه أسابيع من عمر العام لا تدرى أهى أواخر خريفه أم أوائل ربيعه؟ هل تجد فى جسمك غير دفء النعمة، وفى نفسك غير بهجة الأنس ، وفى عينك غير إشراق الجمال؟ أنظر أمامك تر الشتاء الغربى الذى جعله الله شيخوخة الطبيعة ، يسلبها الرواء فلا تُعجب ، ويحرمها النماء فلا تخصب ، ويلقى عليها الهمود فهى سكون خافت وصمت ثقيل، ويلفّها فى كفن من الثلج نسجته ريح بليل ؛ ثم تقشعر الأرض ، وتكفهر السماء ، وتقع الحياة بين القحط والموت ، فتئن بالرعود ، وتتأوه بالأعاصير ، وتتساقط على الشجر السليب والثرى الكئيب والقرى الموحشة، همًّا فى الصدور، وبؤساً فى الأكواخ ، ورهقاً فى العزائم .

إن الشتاء فى غير مصر زمهرير جهنم ، تتنفسه كما تقول الأساطير فلا يذر من شىء يهبُّ عليه إلا أحرقه بالقُر وأغرقه فى الصقيع . أما فى مصر فالشتاء فى الناس لا فى الطبيعة. والشتاء فى الناس برد فى الدماء ، وخمود فى العواطف، وخط فى الأنفس . فلو كان كل من على النيل صافى القلب كسمائه ، عذب الخلق كمائه ، طلق اليد كفيضه ، ضافى المعروف كأرضه ، لكان هذا الوادى الحبيب جنة الله فى الدنيا، أزلفها لجنس من خير الأجناس، خلقه وسطاً بين الملائكة والناس ! ولكن . . . وما أسخف الحياة ما دامت فيها لكن !

ابن عبد الملك